ندّاهة القاهرة

Telegram:@mbooks90

بيير جازيو

ترجمة: اريج جمال

رواية

المرايا

تم هذا العمل بدعم من برنامج دعم النشر الخاص بالمعهد الفرنسي.

Cet Ouvrage a bénéficié du soutien du Programme d'aide à la publication de l'Institut français d'Egypte.

نداهة القاهرة
بيير جازيو Pierre Gazio
ترجمة أريج جمال
تصميم غلاف/غادة خليفة
تدقيق لغوى/ أحمد الشبينى
الإخراج الداخلى/ محمد ندا

الطبعة الأولى، القاهرة 2019
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 2019/27233
الترقيم الدولى/ تدمك:5-48 -6648-977-978
١- القصة الفرنسية
أ- جمال، أريج (مترجم)
ب- العنوان 843

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المرايا للانتاج الثقافى
تليفون: 023961548 - 2+/ موبايل: 01030319318 - 2+
البريد الإليكترونى: elmaraya@elmaraya.net

الآراء الواردة بالكتاب تعبر فقط عن رأي المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار المرايا للإنتاج الثقافي.

٢٧٠٧٩٠٢٣٣١

الى أيمن..

لماذا اليوم وليس في أي يوم آخر؟ لم يكن يشعر بجوع أكثر من المعتاد، ولا بنعاس زائد عن الحد، كما أن الصداع لم يدق رأسه أعنف مما يدق كل يوم. كان مختبئًا بين أفرع البوص، ساكنًا، ومتقوقعًا على نفسه، يسند رأسه إلى رُكبتيه، وعيناه غائمتان، يراقب ورد النيل في انسيابه على السطح، يلمع كالصَّدَف تحت الشمس التي لم تغرب بعد.

ثم، وكلحظة الإفاقة من حلم، ظهرت الفكرة في خياله واضحة، باهرة. يجب أن يُنهي كل هذا، أن يرتاح من حياة تنهمر فيها الصفعات من كل اتجاه، يجب أن ينجو من هذه القذارة، بما في ذلك أبخرة الكُلَّة التي تُجبره على استنشاق روائحها الحمضية. في الشتاء الماضي، قبل العيد بقليل، اِنتشل جسد حسن الغارق أسفل كوبري قصر النيل، كان قد رآه، مُزرقًّا بالكامل، كأنه خرج حالًا من الثلاجة. عندئذ لم يفهم. أما الآن فهو يرى كل شيء بوضوح. حسن الآن حُر، في الجنة بالتأكيد، فإذا لم تذهب رحمة الله إلى أولاد الشوارع، إلى مَن إذًا ستذهب؟

هيثم المأخوذ لوهلة بفكرة حريته وشيكة التحقق، راح يستدعي صورة ضباط الشرطة الذين كان يخدعهم من قبل وهم عاجزون عن تسديد المزيد من الصفعات إليه، وصورة أمه الغبية التي تركته يغادر المنزل، بعد ذلك انتقل إلى أسئلة أكثر عملية. أن يقتل نفسه لكن كيف؟

Telegram:@mbooks90

ليس بإلقاء نفسه من الشباك، فهو أصلًا لا يملك واحدًا، ولا بالقفز إلى مياه النيل، فهو يُجيد العوم. وصحيح أنه سَمَع ما قيل عن ابنة جزَّار «السيدة عيشة»، التي على إثر خناقة زوجية تركت جسدها للقطار يشقه نصفين، بعد أن غادر زوجها مع جارتها السودانية، إلا أن هذا يعني أن عليه الذهاب إلى الجيزة أو بولاق الدكرور، كي يجد رصيفًا للسكة الحديد. وذلك طريق طويل، ومخبرو البوليس ينتظرونه تقريبًا عند كل منعطف. ثم يجب الاعتراف، أن ينتهي مدقوقًا مثل الكُفتة، لهي صورة تصدم حسَّه الجمالي، الذي لم يتمكن اليأس رغم كل ما حدث، من القضاء عليه.

بقيت المشكلة بلا حلّ حتى حلول المساء، وحده تولّى إطفاء ما تبقّى من بريق على سطح الموج الآخذ في الاسوداد. من فوقه، على الكورنيش، كانت تمر عربات

الإسعاف، مُطلِقة عويلها، مُسرِعة في اتجاه المستشفيات، كأنها تتعجل وضع الضحايا بين أيدي الأطباء القاتلة.

بصعوبة ينهض هيثم من مكانه، يصعد سور السُلَّم على رِجل واحدة. وهو سرحان، يلتقي المدينة من جديد، التي تبعث الجدران فيها، وأسفلت الطريق، وحتى الأرصفة، حرًا ثقيلًا، لا يُحتمل.

في طريقه إلى تنفيذ المشهد الأخير- وقبلها أن يعرف كيف ينفذه- يريد أن يقول وداعًا لعالم استوعب حياته. هنا فاجأته الكلمة: ستكون له إذًا حياة مثل الأغنياء والمُسنِّين؟ رغم أنه لا يتذكر منها سوى شريط مُفكك من الأيام والليالي، بعضها مُختصر جدًا، وبعضها الآخر بلا آخِر، شريط تُضاف إليه المزيد من الحلقات دون أن يشكل تيارًا متناغمًا يقود إلى نهاية سعيدة. في الأفلام، يكون البطل المُغني في البداية فقيرًا ومُشردًا، ثم يصبح مشهورًا وغنيًا، قبل أن يتزوج ابنة المليونير الوحيدة والشقراء. حوَّلت الكُلَّة ذاكرته إلى مجرد ضباب من الكواكب السوداء، لكن هيثم ما زال قادرًا على أن يستدعي ولو بشكل مُشوَّش، بضعة أعوام سعيدة، هي بلا شك أعوامه الأولى.

وهو صبي صغير. يعيش مع أبويه، في بيت كبير بالقرب من مار جرجس، في حي مصر القديمة، بيت مسقوف بعيدان القصب، مَطلية جدرانه بدهان أصفر خشن مثل بيوت الفلاحين. في ليالي الصيف، يصعد الأب للجلوس فوق السطح، ويُحضِّر بعناية فائقة «الجوزة» التي سيدخنها. أحيانًا يصطحب معه الراديو، ليسمع أم كلثوم أو عبد الوهاب يشتكيان بلا نهاية من عذابات الحُب ولوعته. في ذاكرة هيثم، القمر دائمًا مكتمل، يتسرب ضوؤه الأبيض فوق الصُلبان في مدافن المسيحيين القريبة، وعلى الأسوار السميكة للبرج البيزنطي. في هذه الأجواء كان الأب يرسله لشراء قنينة براندي «معتق»، بسعر 150 قرشًا. ويجري هيثم، الذي تثيره فكرة عبور الأزِّقة المُعتمة بالقدر نفسه الذي تُخيفه، من الجسر الذي ينبغي عليه اجتيازه أعلى السكة الحديد، إلى بوتيك العم رمسيس العجوز. يُحب رائحة الكحول التي تُعبئ الدكان الصغير. وعلى الأرفف الممتلئة بزجاجات لها جاذبية غريبة، تطل صورة القديس

جرجس مُتلفحاً بعباءته الحمراء المُخضَّبة بدم تنينه المصروع.

هل كان أبوه، الذي نسي اسمه تقريبًا، غبريال، سوبرييل، هل كان أبوه مسيحيًا؟ بالتأكيد. تمر على باله ذكرى عابرة لإقامتهم قرب تلة، في زقاق مكتظ بالرَّوث، حيث تجيء الخنازير وتذهب على هواها، مزمجرة ومُقلبة عيونها المخيفة في الأرجاء. لم يشغله السؤال قط من قبل. إنه على يقين من أمر واحد؛ كان والده بائعًا للصحف.

أما زوج أمه سمير، فلا يمكن أن ينساه. أولًا لأنه ما زال على قيد الحياة، ثانيًا وهذا هو الأهم، لأنه قد غادر البيت بسببه. لم يحتمل سمير إلحاح هيثم لعشرين مرة في اليوم: «عاوز أشوف بابا»، ولا لاضطراره أن يرد عليه: «أبوك مات، ابن ال....» سرعان ما فقد سمير صبره، وقد كان قليلًا أصلًا، وقام بتعليق الصبي الصغير من رِجليه ثم جَلَده بخرطوم أنبوبة البوتاجاز. هذا موجع جدًّا بالطبع، لكن الأصعب من الوجع كانت المهانة، شعر هيثم بالسخط لأنه أدرك أنه أضعف بكثير من أن يدافع عن نفسه، ذلك ما جعله يترك البيت، لم تعرف أمه سوى لطم خديها، مثلما يحدث في تمثيليات التلفزيون التي تُعرض في المساء، لم تفعل أي شيء لحمايته.

لم يعد له مكان بينهما، ولا في أي مكان آخر، كان مكانه في الشارع، في قلب المدينة الواسعة، التي تتلألأ فيها الآن ملايين الأضواء: اللمبات الخضراء للجوامع، وكرات الإنارة الدوَّارة للكازينوهات التي تطل على شاطئ النيل، ومن ميدان التحرير تظهر اللافتات الحمراء العملاقة، بالإضافة إلى إضاءة النوافذ التي يعيش خلفها الناس في سلام. كان في طريقه إلى التخلص من متاعب هذه الحياة إلى الأبد، لهذا بالضبط شعر هيثم بالجوع.

دون أن ينتبه، وجد نفسه وقد وصل إلى السيدة زينب، حيث تُذكِّر القباب الجليلة والمغمورة بالنور بالكرم الأسطوري للسيدة حفيدة النبي. خلف هذا المسجد بالضبط، ومثل تكذيب للخير في نفوس البشر، يقع مَعلَمٌ آخر، مِعماره أقل بهاءً لكن هيثم يتردد عليه أكثر، إنه قسم الشرطة. غالبًا ما تأتي أمه لاستلامه، بعد أن يفشل في الهرب من مداهمات البوليس. بالنسبة إليه كل شر العالم يتجسد في ذلك المبنى، وهو يود من كل قلبه أن يراه يتبدد تحت ألسنة اللهب مع ساكنيه. هناك تلقَّى للمرة

الأولى الضربات على ظهره، وعلى لحم مؤخرته الرقيق الذي صار مغطّى بالكدمات. كانت الشرطة تبحث عن لصوص حقائب اليد، جمعوه ضمن آخرين أصروا على إنكار التهمة بحجة غير قابلة للتصديق: هي براءتهم. وكان على الضابط أن يجلد كل أبناء المُخنثين هؤلاء، فقط كي يهدئ أعصابه.

بدافعٍ من الحذر، يتخذ هيثم خط سير لا يُثير الريبة، بين الحواري المزدحمة بالبشر والصاخبة بالأصوات، فيها على الأقل سيجد ما يسد به جوعه هذا المساء. للحظة فكر أن يذهب لرؤية «عزيزة» أمه، للمرة الأخيرة، ثم تراجع. ليس لديه ما يقوله لها، أو ربما لديه الكثير جدًا ليقوله، لكنه يُفضِّل الصمت وأخذ هذا الكلام معه إلى القبر.

قبل الصبح بقليل، يحدث فجأة أن تنادي ألف مئذنة وعشرة آلاف ميكرفون لصلاة الفجر، يصدح المؤذنون بنفس العبارة: الصلاة خير من النوم. تنطلق الأصوات، تختلط، وتتراكم ثم تعود من حيث أتت. كأن جدرانًا غير مرئية شيّدها الليل ويجعلها النهار تختفي تُعيد بعثها على شكل موجات طويلة من الصدى. وإذ ينقشع الظلام، تخبو تلك الأصوات متعددة الطبقات، التي تآلفت بطريقة ماهرة وعفوية في آن، تخبو نغمة وراء نغمة، وبعد أن كانت تغزو سماء المدينة كلها، صارت تفسح المجال لصمت غريب، صمت ينشر كآبة عابرة في كافة أحياء المدينة.

ثم سرعان ما تتولى الشمس الحامية تبديد هذا الشعور تحت وطأة الحَر والجلبة.

في هذه الساعة، يكون هيثم نائمًا. ملفوفًا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بكوفرتة أعارته إياها أم سيد، حارسة العقار التي تسمح له أيضًا بالبيات على الأرض قرب الواجهة الحديدية للبوتيك المفلس والمغلق منذ زمن. من بعيد يبدو كحقيبة طويلة أو مجرد سجادة مطوية؛ لا يمكن أن نحدد على وجه الدقة. أما وهو على هذه الحال فلا يصل إليه صوت زمارات الأتوبيسات التي تجري بسرعة جنونية، ولا ضجيج السيارات والعابرين. يجرفه النوم إلى أعماق معزولة تمامًا، معزولة أكثر من القعر المظلم لهذا النهر الذي يجري في سكون وصمت آخر الشارع. لكن ذلك لا يمنع، أنه أكثر من مرة أثناء الليل استيقظ وهبّ واقفًا على قدميه، بعد أن تخيل أن يدًا ثقيلة تضغط على عنقه، تلك اليد ربما تكون هي التي قادته في المنام من كابوس إلى آخر.

أمس في المساء، التقى عبده «كاسر البيض»، شخصية شهيرة في الحيّ، فنان أُجبر على التخلي عن مهنته في البدايات. كان قد تَدرّب على سيناريو قصير، مشحون بالعواطف والحوار المؤثر. يسقط من دراجته فيندفع البيض الذي يحمله إلى الأرض، مُشكّلًا حوله بقعة من الصفار والبياض. في وَهَنٍ واضح، يبدأ لطم خديه وجبهته، ينتحب وهو يروي بطريقة تمزق القلب العقاب الفظيع الذي ينتظره. يتوقف عابرون متعاطفون، يمنحونه بضعة جنيهات ويحثونه على تسليم أمره لله. لم يلحظ أحد أن البيض فاسد منذ وقت طويل، وقت يسبق الحادثة بالطبع، ذلك السائل لم

يكن أكثر من شمّ باعه العطّار مقابل حفنة قروش، دون أن يعبأ بمصير مَن سيتعرض له. كان عبده منتشيًا بنجاحه، عندما ارتكب الخطأ وقدم العرض نفسه مرتين في يوم واحد، المرة الأولى على الكورنيش، والثانية قرب الأهرامات، لسوء الحظ تعرّف عليه أحد المتبرعين، جرّسه وسط المارّة في الطريق واستدعى البوليس، والنتيجة: السجن لمدة ثلاثة أشهر، خرج بعدها عبده مجرد ظل هامد. هكذا انتهت قصة الأومليت الحزين.

منذ عودته إلى الحيّ، لم يتوقف عبده عن الكلام عن خيبته، عن الشكوى من ظلم القَدَر، وعن أولاد الكلب الكثيرين الذين يسكنون هذه المدينة عديمة القلب.

لكنه يُحب هيثم، بلا شك لأن الصبي لا يمل مشاهدته وهو يؤدي نمرته. مثل ممثل فاشل يضربه الحماس أمام آخر مُعجبيه، يهتم عبده بما يصدر عنه من شكوى في حضور هيثم، ويدقق حتى في اختيار طريقة تحريك عينيه، بينما هيثم يواصل الضحك بلا كلل، ضحك حاد يجعل عينيه تدمعان. بالأمس آخر النهار، عَزَمه عبده على صحنين من الفول في «الجحش» أشهر مطاعم السيدة زينب، والذي تصل شهرته حتى أحياء الأغنياء. في ليالي رمضان، ينتظر هيثم هناك وسط حشد من الشحاذين لحظة مجيء أولئك البرجوازيين، بروائح عطورهم النفاذة وتباهيهم بالشفقة على الفقراء، تثيرهم فكرة تناول السّحور مع أفراد الشعب العاديين، على مقاعد عرجاء بلا ظهر ولا ذراعين، وعلى طاولات يُغطي سطحها طبقة ملساء من الزيت.

بعد أكلة الفول سار هيثم في الحواري، على الأرض دائمة الرطوبة لأن البلاعات المسدودة تبعث أبخرتها إلى السطح. ورفع رأسه فرأى الغسيل يتدلى من الحبال لا يحركه الهواء، والنساء يثرثرن فيما بينهن وينادين على عيالهن، بينما العيال يلعبون في الطين ولا يكفُّون عن الصراخ.

نعم اعتاد على وجود هؤلاء الناس حوله، لكنه يشعر أنه محكوم بسجن بلا جدران في هذه الأحياء الدنيا، يُصيبه ذلك بقلق غير مبرر، وباشمئزاز أكبر من الذي يحس به إزاء جلسات المراهقين في أمسيات الصيف الحارة، عندما يضحكون بصوت

مرتفع جدًا ولا يعنيهم الآخرون، بعضهم يعرف هيثم، ويُسلِّم عليه بصوت رنان حين يلقاه: «هيثم يابن الش....»، إنت رجعت من المصيف؟» وهو لا يرغب في أي تبادل للشتائم ولا للسخريات، لأنه يعرف أنها تنتهي دائمًا أغبى مما بدأت، بعناقات لا معنى لها. إنه يحس بوحدة رهيبة، هو وحيد في عالم مرعب، يبدو فيه الآخرون راضين، بل وسعداء، فلماذا إذًا لا يوافق على دعوة «أحمد برشامة»؟ المعروف بتعاطيه العقاقير المسحوقة ذات التأثيرات المُتلفة للدماغ. مظهره هزيل، وجبهته شاحبة لكنه لا يعيش أي نوع من المعاناة في حياته. بحجج مبتكرة يبتز المال من أمه التي تدير بوتيكًا لبيع العطور المُقلَّدة والتحف الرخيصة اسمه «باريس 2000». تروج هذه السيدة بإصرار لأكذوبة أن زوجها يعمل في مجال السياحة بشرم الشيخ، رغم أن كل مَن بالحي يعرف الحقيقة، فالرجل محبوس منذ خمس سنوات في أحد سجون الدلتا على ذمة قضية إتجار بالحشيش. يتنقل برشامة بسهولة مذهلة - بالنسبة إلى سنه- بين أنواع الكحول المختلفة، ومعرفته العميقة بالخمور المحلية منها والمستوردة تُبهر حتى مَن يكبرونه في العمر. ذلك المساء، لم يكن معه سوى القليل من الحشيش. دخنّاه معًا في قلب «باريس 2000» بعد أن أطفآ الأنوار وأغلقا الباب. استندا بظهريهما إلى رف يحمل عدة مرايا مُصممة على شكل قلب، ومُحاطة بتماثيل لقطط صغيرة من البورسلين ولوحات لسور من القرآن الكريم مزخرفة بماء الذهب. في الخارج تخلو الطرقات مؤقتًا من المارّة، وهما يسمعان صوت الفزبا نفسها تذهب وتعود، وجرس عربة كارو متباطئة. من الطابق العلوي يأتيهما صوت أغنية تقول كلماتها: «شايف البحر شو كبير وسع البحر بحبك». يُطلق المُخدِر لسان برشامة، ويبدأ في حكي آخر أخبار الحي، وقائع تتبادلها بشكل مشين شلة «ياسر القرد»، الذي يُكن أحمد له أشد الإعجاب. من هذه الحكايات، احتفظ حتى النهاية بحكاية انتحار المكوجي الشاب، فهو يرى هذه القصة مضحكة وعبثية بشكل خاص. لم يحب والدا المكوجي خطيبته، تصبغ شعرها باللون الذهبي وتلوك الألسنة سمعتها. ترجيّاه بإلحاح أن يفسخ الخطوبة، ولم يجد هذا الأبله أمامه من حل سوى قتل نفسه بسم الفئران. طريقة أخرى لن يلجأ إليها هيثم، تحتاج وقتًا طويلًا، ومُعقدة، ومؤلمة بكل تأكيد، بالإضافة إلى ذلك بكم سيشتري سم الفئران هذا؟ انتحار ملائم للأطفال، أبناء التجار بأفكارهم الرومانسية.

لا يفكر في كل ذلك وهو يفيق، لا يفكر في شيء، رأسه فارغ وثقيل، وفي فمه الجاف طعم المرارة. يعرف هذه الحالة من التبلد، عندما يكون الألم في كامل الجسد، والعضلات المُتشنجة لن يُرخيها سوى حمام منعش ولطيف في مياه النيل. حاجته إلى النيل أكبر من حاجته إلى الطعام أو الشراب. وليس عليه أن يذهب بعيدًا، فبضع خطوات تكفي كي يصل إلى الجسر الصغير في الطريق إلى مستشفى دار الفؤاد. أسفل هذا الجسر توجد غابة من الشجيرات وأفرع البوص تُضفي على الأحجار العتيقة طابعًا ريفيًا، وبالقرب منه تقاطع الطرق الذي يستقبل بعد ظهيرة أول أيام الحرّ، مجموعات قليلة من السباحين، طلاب مدرسة المُنيرة أو دار السلام، تلامذة ثانوي متهورون، يعومون هناك، يغوصون، ويترشّشون بالمياه، يطاردهم أفراد من البوليس النهري، ومن الزوارق ينعتونهم بالفاسقين وبالحيوانات عديمة الحياء، ولا يمنعهم ذلك من العودة مجددًا. لا رجال الأعمال الجالسين وراء الزجاج الشفاف لسياراتهم المرسيدس، يتحدثون في التليفون بعصبية وهم يشعلون سجائرهم، ولا ركاب الميكروباص المحشورين في الحر، يتعرقون ويتنهدون وهم يحاولون التهوية على أنفسهم، لا أحد من هؤلاء أو أولئك لديه أدنى فكرة عن المتعة التي يمنحها هذا الشاطئ البدائي.

في أحد أيام شهر مايو الماضي، احتلت الشرطة كل من الجسر والضفة، بغرض تضييق الخناق على السباحين، كانت إستراتيجية شجاعة فعلًا غير أنها باءت بكل فشل. نجا هيثم لأنه سارع بالهرب، بلا تفكير زجَّ بنفسه في أتوبيس كان يسير في عرض الطريق، بسروال داخلي ممزق ظهر بين ركاب الأتوبيس، وكانوا من موظفي الحكومة يرتدون قمصانًا بأكمام قصيرة، أو سيدات بيوت منتفخات الوجه، فأثار دخوله بينهم موجة من نظرات الاستهجان والشتائم التي تمسّ المجنونة التي أنجبته للحياة، وصيحات أخرى تنادي بضرورة رجوعه إلى المصح العقلي.

في الأيام الهادئة، يتكئ أفراد من الجمهور على سور الكوبري، الذي يوهم من بعيد أنه مُفكك، ولا يفوّتون متابعة إحدى هذه الحركات البهلوانية، خصوصًا حين تكون من سباحين كهيثم؛ يعتلي هؤلاء السباحون السور الضيق، يقفون على الحافة

ثم يتنافسون على أداء أفضل قفزة ممكنة. تبدو المياه من الخارج لامعة، وثقيلة مثل الزيت، أما أسفل هذه الطبقة العاكسة فهي تُرحب دائمًا بمن يدخل إليها. يُبقي هيثم عينيه مغلقتين كي يتمتع بمداعبة الموج المنعشة وهو يُمسد له كتفيه وظهره وفخذيه. ينمحي العالم وحتى الشمس تعجز عن خنقه. تحت الماء تصمت المدينة أخيرًا. لا يهمه إن كان ذلك الليل أو النهار، إنه يعيش حلمًا يأتي دون نعاس. تختلط عليه الدقائق والساعات، ويفقد الإحساس بالوقت، يضجُّ الدم في عروقه برقة ويصل الصوت إلى أذنيه. عندما يفتح عينيه، يرى شعاعًا للضوء يتراوح لونه بين الأخضر والفيروزي، لا يعرف له مصدرًا، كأنه مُعلَّق في الهواء، شعاع الضوء هذا قادم من الجنة. ويود أن يبقى أكثر، لكن التيار لا يريد الاحتفاظ به، يلفظه بقسوة، لتتلقفه من جديد الضوضاء والأنوار المُعمية وكل أخطار العالم الخارجي بمجرد وصوله إلى السطح. عندئذٍ يحاول الغوص ثانية كي يعاود العثور على تلك السعادة الزائلة، التي تُذكره بالنداهة. يستند بجسده المبتل إلى الأحجار الملتهبة للشط، ويستعيد ذكرى إحدى ليالي صيف مضى.

كان ذهنه ما يزال مشوشًا، من تأثير الحبوب المسحوقة التي تعاطاها في اليوم السابق، خلطة رائجة جدًا، يسمونها لأسباب غير معروفة «الأرنب». بدأ يسير منذ غربت الشمس، وظل سائرًا حتى وصل إلى الجسر الذي يحرسه الأسدان، لم يكن من قبل قد جاء إلى هنا. فوجئ بزحام كثيف سرعان ما جرفه بعيدًا، كانت الأرصفة الضيقة ممتلئة ببشر من كل صنف: أزواج من الأحبة، أفراد من العائلات أو من العُزاب يتسكعون، مجموعات من المراهقين، يطلون شعورهم بالجل ويتأبطون بعضهم أذرع بعض.

كيف وجد نفسه فجأة على الطرف الآخر من الشاطئ، في الزمالك؟ لا يستطيع أن يُجيب. لم يكن قد تخلص من همومه، من أفكاره الكثيرة المشوشة، حتى ألفى نفسه وقد أصبح على قمة الجزيرة، هناك حيث يجري النهر في اتساع كأنه بحر. نحو الشمال قليلًا، يجتاز النهر جسر كبير ذو أقواس من الحديد تمر عليه القطارات المتجهة إلى الصعيد، بصافراتها الحادة. وعلى صفحة النيل السوداء، تتلاحق الانعكاسات الصفراء لنوافذ هذه القطارات.

لم يشاهد هيثم من قبل سوادًا شاسعًا كالذي يراه الآن في الماء، سواد يكاد أن يكون مُرعبًا. لهذا فضَّل أن يبتعد، عائدًا إلى كورنيش إمبابة، ليراقب الجانب الآخر المُحاط بظلال النخيل العالية. تتنوع مصادر الجلبة هنا: زمارات سيارات الزفاف، سارينات عربات الشرطة ذات الإنذارات ثقيلة الوطأة، التي يسبقها بريقٌ أزرق يرسله «الفنار» المُثبت أعلى هذه العربات. باختصار حياة كاملة محجوبة عن الجهة الأخرى من النهر. أسفل هذا الصخب، تتشابك أغصان الزرع الأخضر بطريقة تجعل من الصعب التمييز بينها، وتخلق ظلمة ثانية يتخللها هذه المرة بصيص نور يصدر عن أحد المنازل العائمة. من بعيد يبدو البيت العائم مخيفًا، على عكس الفيلا البيضاء المُنيرة، التي لا يُرى منها سوى قمتها، تُعجب هيثم ويجهل أنها قسم الشرطة.

كان مُمددًا على الدرجات الأولى من السلم العتيق المنحوت من الحجارة، تمس قدماه العاريتان سطح الماء مسًا طفيفًا، كان مأخوذًا بتأمل أعمدة الإنارة الساكنة والمائلة إلى حد-ما، وهي تلقي أنوارها الذهبية على سطح النهر. لم يلحظ وهو على هذه الحالة من السَّرَحان، ما كان يقترب على بعد بضعة أمتار: زورق صيد يأتي في اتجاهه متهاديًا تحت ثقل ما يحمله من مجاديف. بالكاد أضاءت لمبة جاز في آخر الزورق الوجوه لكن دون أن تُبينها، وجه الفتى القمحي، ووجه الفتاة الصغيرة التي تعقد طرحتها على طريقة الفلاحين. توقف الزورق بمحاذاته، وبعد تبادل التحية، سأله الفتى لو أن معه سيجارة. قليلًا ما يدخن هيثم. لكن اليوم منحه أحد العابرين على الكوبري سيجارتين كليوبترا؛ لا أحد يمنح الصدقة لولد من أولاد الشوارع، لا أحد يكون لطيفًا معه أو يعطيه الحلوى، فالناس تفترض أنه يُحب فقط كل ما من شأنه أن يؤذيه.

تقديرًا لكرم هيثم معه، دعاه الصياد الشاب، محمود، للصعود على متن المركب. أفرغا معًا محتوى شِباك الصيد، ابتهج هيثم لرؤية السمك وهو يتخبط في وهن أخير. كان مركبًا مخصصًا للتنزه، بأضواء نيون حمراء وزرقاء تخطف الأبصار، يصدر عنه نوع من الموسيقى السودانية، وتتشكل بفعل ذبذباتها الصوتية موجة تؤرجح المركب من حين إلى آخر. لكن بعد أن أبحر المركب، ذُهل هيثم من حركة

الموج الهادئة، ومن قدرته على أن يرى الآن الشاطئ الذي كان عليه منذ دقائق معدودة بعيدًا هذا البُعد. ودّ لو ابتعد أكثر، لو عَبَر جسر السكة الحديد، ووصل إلى هذا السطح الشاسع، حيث الموج هناك صافٍ لا يلمع ولا تنعكس عليه الصور. عندما اقترح الأمر على محمود، أخذ الأخير يشرح له الصعوبات التي تمنع الوصول إلى هذا العمق لأسباب عملية، هي قوة سحب التيار، ثم الدوامات بالقرب من هيكل الجسر، بالإضافة إلى الإنهاك الذي سيصيبه من التجديف طوال هذا الطريق. تَعذّر أيضًا بقوانين الشرطة الحافلة بالمنع. لكن أخته، أميرة، قاطعته ساخرة منه، فتلقّت منه صفعة قوية؛ هذه الجاموسة كان يجب أن تدفع ثمن وقاحتها في الكلام مع أخيها، فهي فتاة وللصيادين أفكار لا تُحبذ آراء الفتيات ولا تشجع على تعلميهن. في النهاية اعترف محمود بأنه خائف، خائف من النداهة.

تذكر هيثم بشكل مشوش أنه كان قد سمع الناس يحكون في طفولته الأولى عن النداهة، لكن هلِ يمكن للمرء أن ينتبه إلى هذا النوع من الحكايات، بعمر السبعة أعوام، عندما يقضي وقته في عربة شحن مُعطلة محاطًا بأبخرة الكُلة؟ من غير المفيد على الإطلاق في هذه الحال أن يسعى لمعرفة أسرار النهر كي يكتشف الخوف.

حكى له محمود كل ما يعرفه عن النداهة. في الروضة المواجهة لكورنيش النيل في حي مصر القديمة أو في إمبابة، ولم يُبقِ العمار فيها وزحام المدينة سوى على بضع شجيرات قصب، هذه المنطقة الشاسعة التي يصعب التعمق فيها، هي التي تشهد ظهور النداهة، تخرج من المياه بجذعها ونهديها العاريين، وبعينين تنيران بلون فسفوري كأعين القطط في الليل. مَن لمحوها قبل أن يتم إنقاذهم بأقصى سرعة ممكنة، يصفونها على هذا النحو، أما ما تقوله لضحاياها فلا أحد يستطيع أن يعرفه. تتركهم يهبطون إلى القاع بلا مقاومة، وهي تمد إليهم ذراعها، ثم تختفي الأجساد فيما بعد تمامًا.

مرّ على هذه الحادثة ثلاثة أو أربعة أعوام، أسفل جسر السكة الحديد بالضبط، وجدوا قارب عمه خاليًا، بعد أن تحوّل مساره، بقيت شباك الصيد والمجاديف في

مكانها. عمامته وجلابيته كانتا مُطبقتين بعناية، كأنه كان يتجهز للنوم أو السفر. وعرف أفراد العائلة ما حدث دون أن يخبرهم أحد.

كان بإمكان هيثم أن يصدق ما رواه محمود. فمَن يعرف النداهة وقدراتها أكثر من الصيادين الذين لا يغادرون أبدًا زوارقهم لا من أجل النوم ولا حتى معاشرة نسائهم؟

يغمر هيثم شعور بالسكينة لم يختبره منذ أيام، ربما منذ أعوام، ويفكر وهو يجمع ثيابه التي جففتها الشمس في أن هذه هي الطريقة التي سيرحل بها، ملتصقًا ببطن النداهة العاري. سيستعيد هذا السلام الذي يحس به حين يغطس تحت الماء، لكن دون أن يخشى من رجوعه مجددًا إلى السطح، ويبقى هناك مغمورًا بالصمت والنسيان إلى الأبد.

ستكون هذه المناسبة الأولى -وبلا شك الأخيرة- كي يرى ويلمس جسدًا عاريًا لامرأة. صحيح أنه لن يكون أكثر من نصف جسد، لكن آخرين يموتون دون أن يحظوا بفرصة رؤيته.

ثلوِّن آخر خيوط أشعة الشمس الأرصفة بُحمرة تمنح انطباعًا واهمًا بتحسن حال الجو. في ذلك الجو يمشي هيثم مشيته المترنحة ويدوس في طريقه الأزهار المتساقطة من الشجر، وهو يحاول ترتيب أفكاره. طالما بدا له أن الاستغراق في التفكير في موضوع واحد، مسألة صعبة بل تكاد تكون مؤلمة. أحيانًا، عندما يكون في مزاج جيد، يسخر من نفسه، من عدم قدرته على التوقف عن اجترار الأفكار السخيفة التي لا قيمة لها، كما حدث ذات يوم في الأتوبيس: كان يقول لنفسه إن الساعة الآن الحادية عشرة، وبعد قليل ستصبح الحادية عشرة والربع، دون أن يتمكن من توجيه ذهنه إلى أي خاطر آخر طوال الطريق.

أما أن يحدد موعدًا مع إحدى النداهات، فذلك أمر أعقد بكثير. لا يستطيع أن يقضي الليل في انتظارها، مختنقًا برائحة البوص، ومتتبعًا أرق ارتعاشة لمياه النيل. كي يلاقيها عليه أن يذهب إلى مساحة يتدفق فيها النهر واسعًا، مثل شاطئ الزمالك أو الروضة. قد تكون أفضل طريقة هي الذهاب على متن قارب، كما فعل عم محمود. يمكن استئجار واحد بالقرب من كازينوهات إمبابة أو ناحية مقياس النيل. لكن هذه الخطة البسيطة ظاهريًا تصطدم بالعائق المعتاد: المال. مَن يوافق على أن يعهد بقارب متهالك تخترقه الماء حتى، إلى مَن يرتدي ثيابًا مُهلهلة ويمشي منكوش الشعر؟

بالقرب منه، تمر عربة خضراوات يجرها حمار نعسان، يلتفت إليها هيثم وتلقائيًا يخطف شيئًا من الخُضرة المُندّاة المنظومة على شكل هرم. يقضم من الأوراق الطويلة الطازجة وهو غارق في أفكاره القلِقة دون أن يولي اهتمامًا لصراخ البائع الضخم وهو يرفع لجامه الرخو في الهواء ويصيح: «يا ... ! يابن الهبلة». لحُسن الحظ، تُجبره زمارات السيارات اللحوحة على الاندفاع إلى الأمام، فتُسكِت بذلك نوبة غضبه الذي أججتها موجة الحرّ.

يعبر هيثم الشارع تاركًا وراءه الكورنيش، هذه المنطقة المُحاطة بالفنادق الكبيرة ليست آمنة، فالطريق ملغم بأفراد من البوليس، يبدو كأنهم يخرجون من خلف الأشجار أو أعمدة الإنارة. ذات مرة جرى أحد كلاب الحراسة وراءه غاضبًا، كان

مصممًا على عضه، كما لو أن خلاص البلد يتوقف على هذه العضة.

في المقابل، يجد شارع القصر العيني أكثر أمانًا، يسمح له الازدحام المروري بهروب سريع إذا ما اضطر إلى ذلك، جريًا بين السيارات، والجري رياضة لا يُجيدها ضابط الشرطة المتوسط. يحاذي الشارع حيًا للأغنياء هو جاردن سيتي، والطرقات هناك هادئة وتُظلل من الشمس، لا يصدر عن العِمارات أي صوت، كما أن الفيلات محاطة بحدائق يعلوها الغبار والأسيجة. يمتاز قاطنو هذا الشارع بأنهم يُحسِنون طواعية إلى يد السائل التي تمتد إليهم، مهما كانت قذارتها، والغريب أنهم نادرًا ما ينظرون إلى وجه صاحبها.

يعرف هيثم أحد هؤلاء، شخص أجنبي. يقف في الطريق ويتكلم معه بلكنة مضحكة كداليدا عندما تغني بالعربي. يعطيه المال، وبضع حبات من الفاكهة لو كان معه، وكذلك قطع بسكويت. يداعب خده، ويطرح عليه أسئلة، لا يحاول هيثم أن يرد عليها. يثق هيثم أن الأجنبي لا يستطيع أن يفهمه. يكتفي بأن يبتسم له، وأن يطلب منه المزيد من المال. يبدو ثريًا، لا تعنيه أسعار الأشياء. خمسة جنيهات مبلغ جيد، ومع عشرين يشعر هيثم أنه صاحب ثروة ستبقى معه لثلاثة أيام، سيتمكن بفضلها من دعوة أصدقائه القلائل على الشاي أو دور في لعبة الفيديو جيم.

كم مرَّ عليه من الوقت وهو باقٍ هنا في انتظار الأجنبي، أولًا جالسًا، ثم بعد ذلك راقدًا فوق مقعد انتظار الأتوبيس؟ ساعتين، ثلاث ساعات؟ كي يُسلي نفسه، ويُبعد النوم عنه، بدأ يُحصي هؤلاء الذين أحبوه ومدوا إليه يد المساعدة، لم يكن هناك الكثيرون. فكر في الكابتن وليد ومدام زينة، بائعي الخضر والفاكهة في سوق حلوان. أقام معهما شتاءً كاملًا، عاش مع رائحة الموز والجوافة، وفي أحد الأيام غادرهما دون أن يعرف لماذا فعل. ربما لأنه ببساطة كان يشعر بالملل.

أخيرًا، يظهر الأجنبي، يراه خارجًا من الصيدلية بهذه الطريقة التي يتساوى فيها مع أقرانه، عندما يركزون نظرهم إلى الأمام خشية أن تتقاطع عيونهم مع عيون شخص ما، يكون عليهم أن يقدموا إليه المال أو أن يدعونه إلى الطعام.

يجذبه هيثم من كُمِّه، فيلتفت الآخر، ويصيح من المفاجأة، يبدأ في طرح الأسئلة

الغبية نفسها، المُحببة إلى النفس مع ذلك: **«أنت كويس؟ جعان؟ نمت كويس؟»**. كأن صبيًا مثله يمكنه أن يقضي ليالي تعويضية، يشبع فيها من أكل الفراخ والحلويات الشرقية!

ثم هل لأنه أدرك فجأة أنه قريبًا سيغادر العالم، فبدلًا من أن يطلب المال وهو في أشد الحاجة إليه، أخذته رجفة لا تُقاوم، جعلته يجذب الأجنبي هذه المرة بطوله، يسند رأسه إلى صدره ويضمه بقوة؟ امتدت برِقّة يدُ إلى شعره تمسد عليه، والأخرى وشوشت له ألا يحزن، فهو سيساعده، سيبتاع له قميصًا جديدًا وأي حذاء يختاره. لم يصغِ هيثم إلا إلى نصف الكلام، فهو ليس في حاجة لا إلى قميص ولا إلى صندل. يمكنه أن يذهب للقاء النداهة حافيًا، على الرغم من ذلك ابتسم للأجنبي، ثم تركه هناك ورحل.

يضرب رأسه صداع عنيف. دقات تجعله يغلق عينيه من الوجع. ويمشي دون أن يفكر في شيء. لو سأله أحد ما اسمه، لما تمكن حتى من الإجابة. الكُلّة والحبوب المسحوقة «أتلفت دماغه» على الرغم من أنه توقف عن تعاطيها إلا فيما ندر، كما قالت له الممرضة الصعيدية التي ضمدت له معصمه ذات يوم، من أثر ضربات المُوسي التي تلقاها في لحظة هذيان. كانت تتكلم بلهجة صعيدية، وبنبرة حنونة دون أن تصفعه كما فعل معه رجال الشرطة عندما ألقوا القبض عليه فوق الرصيف، وقد وجدوه ضائعًا تمامًا من أثر الكُلة. وعدها ألا يتعاطى المخدرات بعد ذلك، وقد حافظ تقريبًا على وعده.

يمشي الآن، كإنسان آلي، يتقدم في طريقه دون أن يرى المارّة المحيطين به. عليه أن يبلغ الضفة حيث تنساب المياه بوتيرة هادئة، بين الحشائش العالية حيث سيستريح ويشعر بالأمان، ويستمتع بمراقبة التيار وقد تلون بخُضرة الزرع المحيط به.

لا يسمع حتى السلامات الساخرة التي يلقيها عليه عم صابر، بائع الفول:

- كيف حال سيدي البيه، انهاردة، كيف حال سيدي الأمير؟ سموه رايح يتغدى في سميراميس؟

جعل منه عدوًا لا يُستهان به يوم رفض الطعمية التي قدمها إليه في لحظة كرم غير مسبوقة، وصحيح أنها كانت ناشفة إلى حد ما.

- مقلية في زيت عربيات! خليها لحماتك!

ارتعش صدغا عم صابر من شدة الغضب، كان مذهولًا من غطرسة هذا المتسول ووقاحته، كيف نسي في هذه اللحظة قاموس شتائمه الواسع، بألفاظه المُنتقاة المشهورة في الحيّ بقدرتها على الفتك تمامًا بالمشتوم.

هكذا هو هيثم. هناك أشياء تصيبه بتقزز غير مُحتمل. كأن ينزل من الأتوبيس، دون أن يدفع الأجرة لأن رائحة أقدام الركاب تزعجه، أو أن يزدري، على الرغم من جوعه الشديد، وجبة كفتة، حَكَم عليها أنها ممتلئة بالدهن، أو لم تكتمل تسويتها.

يفيق هيثم ليجد النهار موشكًا على الانتهاء. تنطفئ خُضرة الزرع الذي يحد جزيرة المنيل، وتحتجب الشمس خلف بنايات الجيزة الضخمة وأبراجها العالية. اختفى صداعه وهو الآن بالكاد يتذكر كيف انهار من التعب، ورقد في المخبأ القديم، ذلك التجويف المنحوت بين الأحجار الذي يُخفي مَن فيه عن أعين الواقفين على الكورنيش.

Telegram:@mbooks90

إنه جائع، بل يتلوى من الجوع، كما أنه ظمآن، غير أن جسده في حالة خدر تام، وهو مستسلم لهذا الثقل ولا يُفكر في النهوض. يود كثيرًا لو تأتي النداهة الآن. لو يُغمض عينيه ويلقي نفسه بين ذراعيها البيضاوين، وفي صمت يهبطان معًا إلى عمق المياه المنعشة. لكن أمامه على السطح، لم تكن هناك سوى بعض من نباتات ورد النيل تتباعد باستمرار، وجذع شجرة مُتصلب كغريق.

ثم يحلُّ الليل، وفي السماء المُضبَّبة، تُنير نجمة وحيدة بنورٍ ضعيف لا يُقارن بالأشعة الصفراء التي ترسلها الفنارات لإرشاد الطائرات كي تهبط في اتجاه مصر الجديدة. يتخيل هيثم أنه قادم من إحدى هذه البلاد التي يعرف أساميها من التلفزيون: المكسيك، اليابان، أمريكا... كم أسبوع يلزمه كي يصل إلى ذلك البلد الذي ينتصف فيه النهار بالضبط في هذه الساعة؟

قُبالته ناحية المنيل، على الناصية تنتصب عِمارة ضخمة نوافذها جميعًا مُضاءة إلا شقة واحدة. لا بد أن ساكنها يقضي شهور الصيف على شاطئ البحر، بعيدًا عن نار القاهرة. كان هيثم قد نسيه هو الآخر، وحتى لو لم ينسه كان من المستحيل أن يذهب لرؤيته مجددًا، حتى وإن كانت نهايته متعلقة بهذه الزيارة.

التقاه عندما كان يعيش في الأحياء القريبة من سينما فاتن حمامة، عند نزلة كوبري عباس. في تلك الأيام كان يهجم على السيارات التي تحتل كل شبر من تقاطع الطرق المختنق باستمرار، وفي يده خِرقة مُشحّمة. بمجرد رؤيته يفرش قطعة القماش الوَسِخة والمُزيَّتة هذه على الزجاج الأمامي للسيارات، كان قائدوها يصرفونه إما بشتمه وإما بإعطائه ريالًا أو خمسًا وعشرين قرشًا. الحل الأخير كان يُريح الجميع، ويتيح لهيثم أن يكسب حوالي خمسة جنيهات يوميًا، يدفع نصفها إلى السائس المسؤول عن المنطقة.

في الصباح الباكر، كان يتولى أيضًا غسل سيارات سُكان العِمارة القريبة بالنيابة عن البوَّاب الضخم، الذي يُفضل الارتياح على كرسي والتسلي بقراءة صفحة «غرائب وطرائف» في الجريدة بينما يتناول أول كوب شاي ضمن وصلة تُصيب أي كائن طبيعي بالدوخة. في المقابل كان يوفر لهيثم الحماية، ويسمح له بالنوم خلف السُلّم.

كان ذلك يوم جمعة، في صباح بارد ومُلبّد لو أنه ما زال يتذكر جيدًا. يخلو الشارع من الناس، وهو ينتهي من غسل سريع للسيارة البيضاء الكبيرة، ويُلقي بحركة مدروسة آخر ما تبقى من ماء قذر في الدلو الذي يحمله على إطارات عجلاتها. قضى الليلة السابقة في السيدة زينب مع رفاقه: برشامة، ورامي، وخالد التركي. اصطفُّوا جميعًا أمام الفيلم الهندي الذي عرضه المقهى عن طريق جهاز الفيديو، وتأثروا بالعواطف الجياشة المعروفة عن هذا النوع من الأفلام. ولأن البرد كان شديدًا، التجئوا إلى بوتيك «باريس 2000»، استند كل واحد منهم إلى ظهر الآخر، وأخذوا يلعبون الكوتشينة حتى بزوغ الفجر. دعا أحمد الجميع إلى السهرة، وكي لا يضايقه هيثم، اكتفى بسحب بضعة أنفاس طويلة من خُرْوم الزجاجة البلاستيك الممتلئة بالدخان الأبيض. كانت أمسية جميلة إجمالًا.

وهو يستدير حاملًا الدلو في يده، فوجئ هيثم بيد تمتد لتثبيته في مكانه، يد رجل غليظ الجسد يقف ساكنًا. لا بد أنه صاحب السيارة البيضاء، سينفجر في تأنيبه على قلة ضميره. يرتدي نظارات طبية إطاراتها مُذهبة تشي برجل مهم لا يمكن لشيء أن ينتزعه من هدوئه. توجه إلى هيثم بهذه العبارة التي أذهلته:

- أنت ولد ذكي.

لم ينعته أحد من قبل بالذكاء، ولم يفكر هو أبدًا في أنه قادر على استدعاء هذه الصفة.

- سأكلفك بعمل. تصعد معي إلى الشقة وتُنظف الموكيت.

يتكلم بنبرة لا مثيل لها، نبرة شخص معتاد على إلقاء الأوامر وعلى تلقي إجابات فورية بالطاعة.

في الأسانسير سيقول لهيثم إنه وكيل نيابة. لا يفهم هيثم كثيرًا طبيعة هذا العمل المحترم، لكنه يستنتج أن له علاقة بالسجن والشرطة، هكذا سيدخل إلى الشقة وهو يحس شيئًا من القلق. لم يشاهد من قبل شقة بهذا الاتساع، بهذا الجمال، سوى في تمثيليات التلفزيون. في كل مكان يوجد فوتيهات مُذهبة، وكنبات مُنجدة، ومناضد صغيرة مُغطاة بمفارش، وزهور صناعية موضوعة في فازات مرسوم عليها طواويس. يتيح له وكيل النيابة أيضًا زيارة غرفة النوم التي يسيطر عليها اللونان الأبيض والذهبي، بما في ذلك لون جهاز التليفون، ولون الإطار الذي يحدد المرايا الكبرى في أشكالها المتداخلة. تبدو الغرفة بالكامل كأنها محفورة في إحدى تورت الزفاف المعروضة في فاترينة حلواني تسيباس فرع القصر العيني. من البلكونة يمكن رؤية القلعة، ومن بعيد يلوح جبل المقطم بلونه الرملي كأنه قطعة من الصحراء شامخة أمام سماء الشتاء الشاحبة. من هناك يمكن أيضًا بالتأكيد رؤية مآذن السيدة زينب، لكن هيثم يجهل إلى أين يوجه بصره بالضبط، فهو لا يعرف المدينة سوى من الأسفل.

في أحد أركان الصالون الواسع، توجد طاولات مُنخفضة عليها أكواب مُستعملة

ومنافض ممتلئة على آخرها بأعقاب سجائر وقشر فستق. يظهر الموكيت مصبوغًا ببقع تزعج وكيل النيابة الذي يناول هيثم إسفنجة ومُطهِّرًا وقطعة من قماش، ثم يختفي كما لو أنه استُدعي لجلسة عاجلة في الجهة الأخرى من الشقة. أمضى هيثم دقائق معدودة يفكر، كما ينبغي لصبي ذكي، في أفضل طريقة لتنظيف الموكيت، قرر أن يُبلل المساحة كاملة، مغرقًا بذلك البقع في بِرك تحتاج إلى ساعات كي تجف. يعود وكيل النيابة بسرعة، كما اختفى بسرعة. يخلع سترته ونظارته ويمرر أصابعه بعصبية على الموكيت، لكنه يعلن في النهاية سروره بالنتيجة. لم يكن هيثم يعرف أنه يمكن للناس أن يحبوا الموكيت إلى هذا الحد. دهشته تتحول إلى ذهول عندما يقترح عليه وكيل النيابة أن يستحم.

بعد ذلك سيقدم له ثيابًا جديدة كمكافأة على حُسن عمله. قد يكون الاتساخ أكثر ما يعاني منه هيثم. لذلك يبتهج ويُغني تحت الدُش بصوت مرتفع، وهو يراقب الخيوط السمراء التي تحمل وساخته تشق طريقها على أرضية البانيو. يغسل شعره ثلاث مرات ويَحكُ قدَميه بفرشاة مخصصة لذلك. يريح ذراعيه على بطنه، ويرفع يديه إلى كتفيه، على هذه الوضعية يترك الماء الساخن ينزلق على جلده ويعيده صافيًا لامعًا مع الوقت.

ملفوفًا بطوله في بشكير، يخطو إلى خارج الحمام المُعبأ بالبخار. تبدو الشقة الصامتة كأنها بلا سكان. يُغري ذلك هيثم بالتمادي، ويِنادي، فيُفتح باب ويظهر أحد ما، امرأة شقراء، تصل خصلات شعرها الطويل إلى كتفيها. ترتدي قميص نوم أحمر مُزين بشرائط من الدانتيل، نسيجه شفاف إلى درجة أن هيثم يستطيع أن يرى اللون الأحمر الزاهي لثيابها التحتية. صحيح أن هيثم لا يخاف، والقليل من الأشياء في هذا العالم ما تزال قادرة على إدهاشه، لكنه بقي ساكنًا وصامتًا، تقترب منه خطوة أخرى وتقول:

- ينادوني زوزو، يا ترى أعجبك؟

في رنة صوتها شيء غريب، وتحت الحُمرة البنفسجية التي تغطي الوجه، تعرّف هيثم من جديد على وجه وكيل النيابة.

تجذبه زوزو من كفّه وهي على هذه الحال من التمايل كالراقصات، تُدخِله إلى الغرفة ذات اللونين الأبيض والذهبي.

- تفرّج يا حبيبي، يا قلبي الصغير...

ثم تفتح دفة من الدولاب، فيرى هيثم على الأرفف قطعًا من الفحم مرصوصة، ورُزمًا من الأوراق المالية. تأخذ منها زوزو خمسة، وتضعها بين أصابعها على شكل مروحة، تتغنج وتضحك بصوت مرتفع ثم تُدخِلها في منطقة حساسة من بشكير الصبي، بعد قليل تدفعه إلى السرير المُغطى بملاءة ساتان لامعة. تُطلق ضحكة عالية تُذكّره بنعيق البومة في ليالي الربيع، ثم، وبحركة مسرحية تفك أزرار قميص النوم الأحمر، وتتركه يسقط على الأرض.

يجد هيثم طريقه إلى الشارع بصعوبة، كأنه عائد من حلم، أغرب ما عاشه في حياته القصيرة، حلم هزلي ومثير للاشمئزاز في آن، ولا يعرف حقًّا كيف يفكر فيه. لكن في النهاية جعلته المئة جنيه التي بحوزته للمرة الأولى، والفعل الذي أثبت به رجولته، يتمتع بمزاج لطيف.

في ذلك الشتاء، كان ما يزال على صلة ببعض معارفه القدامى من شِلّة «الضاهر» وكان جزءًا منها في أيام تشرده الأولى. كان يتسكع معهم في محيط محطة رمسيس، ولمدة سبع أو ثماني ليالي متتالية شاركهم السكن في شاحنة مهجورة ومُعطلة. من بين الجميع كان هيثم الأصغر سنًّا.

مع الثروة التي حصل عليها من زوزو، تمكن من دعوتهم إلى قضاء سهرة جيدة في إحدى كباريهات شارع الهرم. ثأروا لأنفسهم من الأيام السوداء التي كانوا يجمعون فيها ما معهم من مال قليل من أجل شراء «عفشة» وهي وجبة بسيطة تقدمها المطاعم الرديئة القريبة من المحطة، في مقابل خمسة وعشرين قرشًا كانوا يحصلون على ما تركه زبائن هذه المطاعم في أطباقهم: خليط من العظم والغضاريف وجلود الدجاج. وأحيانًا كانوا يجدون شريحة لحم.

واصل هيثم معجزاته، فجاء بشوربة عدس في أكواب بلاستيكية، وبأربع دجاجات

مشويات، وبحبات بطاطا حلوة ما زال يتصاعد البخار منها، وبتفاح أمريكاني مستورد باهظ الثمن يترك تأثيرًا جميلًا على مَن يأكله. كان قد جمع ساكني الشاحنة واستعرض أمامهم ثيابه الجديدة وثروته الكبيرة. عانقهم هيثم واحدًا وراء واحدٍ، على طريقته العنيفة، الحضن بقوة حد الخنق. بعد التشاور حول المكان المناسب لبسط مائدة الطعام، اختاروا الاختباء خلف أحد العمدان العملاقة لكوبري غمرة. فوق رؤوسهم كان دوي السيارات المتواصل يُسقِط أجزاء من أسمنت السقف، مع ذلك كانوا يشعرون بالأمان، فلا أحد هنا يستطيع أن يزعجهم. جمع هيثم حوله زهرة مَن عرفهم أيام الدراسة: خالد الأبيض، كوسة، مصطفى، اليد القذرة، والمومياء. وحتى سعيد زعيم الشِلّة وافق على الحضور احتفالًا بوجود هيثم بينهم. يسكن سعيد حاليًا في بيت آيل للسقوط منذ وقوع الزلزال الشهير، بيت يتردد أنه مسكون بعفريت مالكه القديم الذي قضى بعد أن سقطت إحدى العارضات من السقف فوق رأسه، غير أن سعيد الذي يبلغ من العمر على الأقل ثمانية عشر عامًا، لا يخشى شيئًا. كان قد أتى بصحبة حسن، خليله الأشقر المتباهي والمكروه من الجميع، الذي يعتقد نفسه جذابًا جدًا، لمجرد أنه ليس قمحيًا كبقية الأولاد.

قبل الأكل، تذكر الجميع المسكين كيتو ولبثوا لحظة صمت حزنًا عليه. كان قد وصل حدًا من الإعياء جعله يفشل في الهرب من الشرطة ساعة المداهمة، رآه الأصدقاء ويداه مقيدتان خلف ظهره كأنه مجرم عتيد. سيعود بعد بضعة أيام، وربما شهور، رأسه حليق ومغطى بالندوب.

كان العشاء مبهجًا. أشعل كوسة الجلسة برواية ما جرى له من ويلات في شارع عماد الدين، بوسط البلد. فمنذ ولاية المحافظ الجديد المعروف بأفكاره النيرة، وأمره بإغلاق ثلاثة شوارع فرعية أمام السيارات، وقد صار عماد الدين جذابًا للجميع: للشحاتين، وباعة المناديل الورق، ونافخي النار في عروض لتسلية الجمهور. استقطبت كلٌّ من المقاهي البلدي التي تُقام على أرصفة الطريق، ومطاعم الكباب التي تنفث دخانًا كثيفًا في السماء وترفع صوت الأغنيات حتى يكاد يشبه صوت الرعد، استقطبت أسرًا من البرجوازية الصغيرة وطلبة يثيرون الصخب حولهم وفناني الدرجة الثانية النازحين من «بالميرا» و«شهرزاد»، وهي كباريهات تدهور بها

الحال كثيرًا. في هذه الأماكن كان يمكن رؤية ضحايا بسطاء جاهزين لتسليم أنفسهم دون أن يعرفوا حتى إلى مَن.

أغرت شمعة الشارع كوسة بالمغامرة ذات مساء من يوم خميس. كان من الصعب رؤية الأرصفة لأن بشرًا بعدد النمل يغطونها. اقترب من إحدى الطاولات التي تُحلّق حولها أفراد مستمتعين بالجو، ولم يكد يمد يده، ويسدد هذه النظرة المتوسلة والممتلئة باللوم في آن - كان كوسة تحت تأثير الكلة- حتى وجد هناك مَن يجذبه من طوقه. ومَن فعل هذا؟ فتيات مجنونات، أولاد مجانين! جرجرنه إلى غرفة بعيدة، وتوعدنه بأسوء أنواع بتر الأعضاء لو خَطا برجليه القذرتين أرض الشارع مرة أخرى.

بعد ذلك عرف أن أولئك المتسولات الدمويات يستفدن من حماية جهات غير معلومة، وأنهن بفضل تلك الحماية احتكرن هذه المنطقة لممارسة التسول، كان لهن أيضًا زعيمة، اسمها سامية، والداها من فلاحي الفيوم، وتُعتبر امتدادًا لشهرة أهل هذه المدينة بحب المال. حَكَمَت سامية بيد من حديد عصابة الوقحات المُقمّلات تلك.

ضحك الأصحاب من القلب، وتعاملوا مع كوسة كشخص خَرِع، ابن جاموسة ومَعرة الرجال، لكنهم قرروا في السر ألا يقربوا أبدًا هذه المنطقة الخطرة.

ظلت شهيتهم مفتوحة على الرغم من تلك الحكاية التي تشي بانحدار أخلاقي مأساوي، فقد أتوا تمامًا على الدجاج، ومن كل الوجبة لم يتبقَ سوى العظم. اقترح «ليد القذرة» المعروف بخيريته بينهم بيعَه للفقراء، لكن الرأي استقر في النهاية على رميه للقطط التي أعلنت في مواء متصاعد رغبتها في أن تُدعى إلى الطعام.

عند التحلية، أخرج هيثم من كيس بلاستيك قنينة عرق ماركة «بولوناكي» وثلاث عُلب كُلّة ماركة «الشعلتان» الشهيرة جدًا. استولى سعيد على الكحول بحجة أن الآخرين دون السن المسموح وبأنهم غير معتادين على هذا النوع من التدليل. ثم قام، فحيًا الجلسة بحركة متعالية وغادر، يتبع أثره حسن، مصحوبًا باللعنات.

لم يشأ هيثم البقاء لوقت أطول فدعاهم إلى السينما. ولمّا كانوا قد فتحوا بالفعل

الغلبة الأولى، ساروا في الطريق يترنحون ويسخرون من كل شيء وهم يتساندون بعضهم على بعض حتى وصلوا إلى السينما. سينما مصر التي قضوا فيها أجمل فترات بعد الظهيرة في ذلك الزمن الجميل، أيام كانوا يسكنون الشاحنة. في ذلك الزمن أيضًا استهلكوا العشرات من أفلام الكارتيه والأفلام الهندية والأفلام الكوميدية القديمة لعادل إمام، وهم مرتاحون على المقاعد الخشبية المتهالكة للسينما. مع ذلك، لم يكن أي أحد منهم قادرًا على حكي قصة الفيلم، فالمشاهدة كانت تحدث في ظروف الإعياء الشديد من تأثير الكُلة، أو الإنهاك التام بسبب الجلوس الطويل أمام فيلم ومتابعته حتى النهاية. أحيانًا كان جيرانهم على المقاعد الأخرى من الرجال يمدون أيديهم بلا خجل ولا يوقفهم شيء، وخصوصًا إذا مرروا ورقة من فئة الخمسة جنيهات. ذات مرة سدد هيثم ضربة على رأس جاره الوقح بزجاجة ميرندا، هرب الرجل وهو يصرخ ممسكًا برأسه النازف.

أما تلك الأمسية، فلحُسن الحظ لم يكن هناك أحد في السينما سواهم، دفنوا أنوفهم في الأكياس النايلون وأخذوا يُكركرون على ما يقوله إسماعيل يس على الشاشة، انقطع إرسال الفيلم ثلاث مرات، فقد كان الشريط مهترئًا جدًا من كثرة العرض.

نعم، كان هيثم سعيدًا بلقاء الشلة مرة أخرى، لكنه لم يندم قط على اختياره أن يعيش وحيدًا. فالوحدة أكثر أمانًا، وتضمن له خصوصية أكبر. كما أنه لا يطيق الواجبات التي تفرضها عليه الحياة وسط جماعة، الشجارات الدائمة، الغيرة، والنقاشات المتواصلة حول أمور لا تستحق، والانصياع لرغبات الزعيم. في وحدته هو سيد قراره، وقد يبقى لأيام كاملة بلا كلام دون أن يزعجه الأمر.

لم يرجع إلى زوزو بعد ذلك اليوم سوى مرة واحدة. كانت تغيظه حقًّا بالطريقة التي تتقصع بها أمامه، وبما ترتديه من ثياب غريبة وسخيفة، وبضحكتها الحادة وحركاتها الفاحشة. طالما تساءل كيف يمكن لرجل مخوَّل له سلطة إلقاء الناس في السجن ولديه سيارة بيضاء وشقة واسعة، كيف يمكن له أن يجد متعته في مثل تلك الألعاب الغبية؟ ألم يفكر في شرائه لأنه مجرد ولد من أولاد الشوارع، كما يشتري

الناس حمارًا أو ببغاء؟

كي يقوم بهذه الزيارة الأخيرة أباح هيثم لنفسه ابتزاز ثلاث مئة جنيه تحت وعد كاذب بأنه سيعود في الغد. أخذ أيضًا ساعة يد وجدها في الحمام، وكان مرتاحًا وهو يفعل ذلك، فلا بد أن وكيل النيابة يملك أكثر من واحدة غيرها.

قرر أن يضع كل هذا المال في حِجر أمه. ستكون مفاجأة سعيدة. ستطلب منه أن يغفر لها ما سببته له من ألم وتقوم بطرد سمير، النذل الغليظ، هذا المفتري، ابن الستين كلب. ستعود الحياة إلى ما كانت عليه في الماضي، قبل مغادرة مار جرجس، في البيت الكبير المطلية جدرانه باللون الأصفر.

بدلًا من هذا، لم يكن قد مضى على دخوله الحجرة الضيقة التي تنحشر فيها مع بناتها عشر دقائق، إلا وكانت عزيزة قد بدأت في أداء دورها كأم غاضبة. دفنت ورقة العشرة جنيهات بين نهديها ثم اتهمت هيثم بأنه أضاع أملها عندما ترك البيت، بأنه سوَّد وجهها أمام كل جيرانها بعيشه مع كلاب السكك. لم يحتمل هيثم أن يسمع أكثر من ذلك، هرول خارجًا وقبضتاه مضمومتان.

تهبُّ الريح، نسمة لذيذة تأتي من جهة الشمال، من ناحية بحر النيل الذي طالما أبقى الجو منعشًا. على إيقاع الريح تتمايل الأغصان وسعف النخيل، ويصدر عنها صوت يحاكي صخب الموج على شواطئ الإسكندرية. سافر هيثم إلى هناك عدة مرات في الصيف، على سقوف الشاحنات كي يتفادى القطار. في العام الماضي، كان هو وأحد معارفه، ميدو، يسافران على سطح القطار، وحدث قرب محطة دمنهور، أن نهض ميدو فجأة كي يرقص معبرًا عن انتشائه بتأثير الحشيش، عندما اصطدم مباشرة بجسر المشاة في الأعلى، وانفصل رأسه عن جسده. منذ ذلك الوقت لا يسافر هيثم، ويتشاءم من القطارات.

تشتد حركة المياه تحت قدميه، وتختفي انعكاسات أعمدة الإنارة من فوق السطح كأنها مجرد غبار للنجوم، مع هذا المشهد لم يعد ممكنًا معرفة إلى أين يتجه النيل. يمكن لهيثم أن ينزل للسباحة الآن، لكن لا أحد يغامر بذلك بعد الغروب. تحت الماء تعيش كائنات شريرة تنتظر أن تجذبك من قدميك وتمص دمك. ولا علاقة لهذه

الوحوش بالنداهة المسكينة التي لا تبحث عن أكثر من عريس.

أيقظ الهواء العليل هيثم وفتح شهيته للطعام، كما جعل انكسار حدة الحرّ مزاج الناس لطيفًا، ميالًا إلى أداء أعمال الخير. يتحقق هيثم من هذا الخاطر عندما تصل سيدة ضخمة ومسنة ترتدي خمارًا طويلًا إلى موقف الأتوبيس، تبدو وهي تعاند الريح برأسها كسفينة وحيدة وسط بحر متلاطم الأمواج. بعدها يتبرع له ثلاثة أشخاص آخرين، ويحصل هيثم على ما يُمكنه من شراء المانجو. يشتهي هيثم أن يتناولها على مهل كما يتناول الآيس كريم.

يشتريها من فاكهاني فاسد الذمة، ثم يذهب للالتحاق بسيل المتنزهين الذين يسيرون في عجلة، يريدون أن يتمتعوا بالجو.

يرى سطح الماء الأسود، وفلوكات بيضاء تنساب عليه، جازّة وراءها بريق لمباتها النيون الوامضة بألوان عديدة، بينما يتزاحم الناس على كل ما يطفو على مياه النيل. يتذكر هيثم مشروعه: أن يستأجر مركبًا ويذهب به إلى عرض النيل، وهناك ينتظر أن تأتي النداهة. تبدو الآن له هذه الفكرة غير معقولة، فكرة طفولية. لن يؤجّر أحدٌ له أي مركب، لن يساعده إنسان على تحقيق ما يريد.

في الازدحام الذي يبدو فيه الناس كأنهم تواعدوا على اللقاء في ساعة واحدة، يلتقي أشخاصًا يعرفهم، من بينهم رانيا التي تسير بصحبته لبعض الوقت. تبيع وردًا في غاية الذبول، ملفوفًا في ورق سيلوفان. تسارع به في اتجاه مُحبّين يتحاضنان تخمن هي أن علاقتهما غير شرعية، تبتسم لهما تلك الابتسامة الغامضة التي تعني أنها تستطيع تسليمهم لبوليس الآداب. وفقًا لهذه الخطة تحقق مبيعات ممتازة، وفي أحيانٍ قليلة تتلقى شتائم غير خادشة للحياء. عندما يشتد ضيق الحال بهيثم، كانت تمد له دائمًا يد المساعدة. إنه على يقين من أنها تحبه دون أن تجرؤ على الاعتراف بذلك، غير أنه ليس في حاجة إلى هذا النوع من الحب.

دون أن يتوقف في الطريق، يُحيي هيثم بتهذيب لكن من على بُعد، زميلًا ثانيًا، هو تامر. كان تامر يعمل كصبي ميكانيكي يُحسّن دخله الهزيل بامتهان نشاط آخر أكثر ربحًا، هو النشل في الأتوبيسات وعلى الكورنيش، مستفيدًا من الأوقات المواتية

كزحمة مساءات يوم الخميس. لكنه تخلى عن الميكانيكا في نهاية الأمر لظروف عملها الشاق: تلطخه الدائم بالشحم، خضوعه للصفعات، ونهارات العمل الطويلة التي تمتد إلى إحدى عشرة ساعة يوميًا. اليوم، يكرس نفسه تمامًا للفن الذي برع فيه، فن اليد الخفيفة، وهو فن خفي لا يكتشفه أحد. التقى هو وهيثم عدة مرات على السُلَّم المؤدي إلى النهر، حيث يستحم الناس ويشطفون غسيلهم. يحمل تامر معه دائمًا سجائر، وعندما يدخنون يتبادلون حكي أفلام بروس لي وفندام. ولأن أحدًا منهما لا يُجيد قراءة الترجمة المُصاحبة للصورة، تختلف التفسيرات حول قصة الفيلم وحواره. لا يتحدثان أبدًا في شؤون خاصة، ونادرًا ما يشتكيان أحوال الحياة، تتوقف خططهما للمستقبل على المساء القادم. يسعد هيثم بصحبته، ويحب عينيه بلونهما الأزرق شديد الشحوب، وبشرته القمحية. لكنه يتفاداه مع ذلك. فهو يعرف أن إلقاء القبض على تامر مسألةِ حتمية، وفي تلك الحالة ستتهمه الشرطة بأنه شريكه في السرقة. في هذا العالم كي يبقى المرء حُرًا، عليه أن يكون وحيداً، وعندما يسأله الناس مع مَن يعيش؟ يُجيب هيثم: «أعيش مع نفسي».

هذا الازدحام الذي يحميه بكثرة عدد أفراه يُصيبه الآن بالتعب والضجر. يراه بشكل مختلف منذ بدأ يستعيد ماضيه في حلقات متواصلة. كفيلم، كفيلم اكتشف أنه بطله.

يُعيد رؤية كل تلك الوجوه، يُعيد معايشة كل تلك النهارات والليالي التي ليس لها وجود سوى بالنسبة له، ليس لها وجود سوى من خلاله. بالرغم من الاتساخ، الضربات التي نزلت ببدنه، والجوع. أليس لحياته هذه قيمة، مثلها مثل حيوات هؤلاء المتنزهين الفَرِحين الذين يقومون كل يوم بالأفعال نفسها، في الأوقات نفسها، يكررونها دون فهم أنها التفاهات السخيفة نفسها التي تُوحّدهم جميعًا؟

يدهشه أنه وصل إلى هذا الحد بأسئلته، فيتوقف دون أن يبحث عن إجابة، إنه بالتأكيد لا يملك الكلمات الكافية ليفعلها.

يحافظ على محاذاته للنيل، ويتجه جنوبًا إلى المعادي. كثيرًا ما سار على هذا القرب من النيل لساعات، دون أن يستطيع التوقف، كأنه يبحث عن شخص ما أو

شيء ما. لكن منذ ثلاثة أيام بالضبط، لا شيء يُفلح في إبعاده عن النيل لوقت طويل، كلما بَعُد يستدير دائمًا عائدًا إليه.

بعبوره جزيرة الروضة يمتد النهر وكأن لا نهاية له، في هذه الساعة لم يعد من أحد على الكورنيش سوى عابرين قليلين وسيارات يقودها أصحابها بسرعة جنونية. لا تستطيع عوادم هذه السيارات أن تُغطي على مزيج الروائح الطبيعية في المكان، كالرائحة النفاذة والمزعجة للمياه، والرائحة الحمضية لنباتات البوص، ورائحة التربة نفسها إذ تعانق رائحة المشاتل الممتدة أسفل النخلات السامقة.

من هنا يمكن رؤية جزيرة أخرى أصغر حجمًا، على ضوء النيون الأخضر للجامع فيها، والنور البنفسجي الذي يشع من الصليب فوق الكنيسة المُقامة على أرضها، تلك هي جزيرة دهب. وعلى المرسى، الذي تنطلق منه عادة المراكب، تتراصُّ الفَلوكات بعضها جوار بعض، وكذلك الزوراق المخصصة للنزهة والتي تعمل بموتور وليس بالتجديف. على واجهة زورق مُعطل من تلك الزوارق، يوجد نقش عبارة عن كلمات مكتوبة بالخط العربي الأنيق، لا يستطيع هيثم قراءتها، وبالقرب منها صورة للنداهة، تتخذ فيها وضع الاستعداد، ترفع ذراعيها المتباعدين لتحيط وجهها، وتحدق عيناها الكبيرتان إلى الفراغ. جعل الرسام لها شعرًا ذهبيًا يلتف في مشابك أعلى كتفيها. وبعد الكتفين يأتي نهدان مستديران، ثم جذع ضيق ينتهي إلى ذيل أخضر ملتوٍ تُغطيه القشور.

يتوقف هيثم طويلًا أمام هذه الصورة المرسومة بطريقة ساذجة وغير دقيقة، عند الوجه الذي لا يحمل أي تعبير، والشفتين المطليتين بحُمرة قانية. يجلس هيثم قبالة هذا المشهد، ويرفع بصره إلى السماء الصافية، كأنها في فصل الشتاء، ولا تخترق الشحب أية طائرة. من جهة الأحراش ونباتات الأسل، تأتي أصوات مختلطة، لأنفاس، وأخرى لصفير، ثم هناك أزيز الحشرات الرتيب وأصوات حركة لحيوانات مختبئة. في الواقع، يُسبب المكان لهيثم بعض القلق، فهو معتاد على الصخب والأضواء، مع ذلك يحس أن هذا هو المكان المناسب لحدوث شيء ما، لو أن هناك ما يجب أن يحدث.

كي يُطمئن نفسه، يُقزقز اللُّب، ويرمي القشر بين رِجليه، يحاول أن يتخيل أنه

جالس ينتظر بهدوء على مقعد في محطة، أو على طرف الرصيف في الشارع.

لا يريد أن ينام، يحس بحركة الريح خفيفة، وبنسمة هواء نقية تهبُّ عليه. ما تبقى من الليل سيمر ببطء شديد. من آن إلى آخر، يتلو بعض الصلوات بصوت مرتفع لإبعاد الأرواح والجن والعفاريت التي تعيش في مكان مظلم ومهجور كهذا.

قبل الفجر بقليل، يغلبه النوم.

تُخفي خصلات شعره السوداء الطويلة، نصف وجهه المُتقلِّص من أثر كابوس يراه الآن، الكابوس نفسه الذي يراه منذ أعوام: مخلوقات لها أذرع طويلة، وأظافر كالمخالب، تطارده وتريد أن تقتلع عينيه. يستيقظ مذعورًا في الساعات الأولى من الصباح، لا يتعرف على المكان فورًا، يحتاج إلى وقت كي يدرك أنه ما زال هنا، يدهشه ذلك أكثر مما يُحزنه.

تتأخر المدينة في الاستيقاظ يوم الجمعة. يعم الهدوء، ويخلو الكورنيش من الناس. اليوم تتوقف الأتوبيسات والشاحنات عن تلويث المدينة بعوادمها السوداء، وحتى مداخن مصانع الأسمنت في حلوان تمتنع عن حجب اللون الأزرق الصافي للسماء، تتركه يظهر كما لا يظهر في أي يوم آخر.

في هذا الضوء الشفيف، تنعكس على سطح المياه الرقراقة ألوان واجهات البيوت الصفراء الغامقة، والزرقاء الباهتة والحمراء الداكنة. هذا المشهد الطبيعي المزدوج يفتن هيثم، كأنه من بعيد يتفرج على سراب، سراب جميل يُنسيه آخر مشاهد الكابوس الذي رآه.

تدوم معجزة الهدوء هذه زمنًا قصيرًا. تنقضي عندما يشعر بحضور شخص ما خلف ظهره، شخص ما ينظر إليه. متأهبًا للقفز والهرب، يلتفت بحذر ليرى، لكن الرجل الواقف لا يمكن أن يكون شرطيًا يرتدي ملابس مدنية. لا أحد من هؤلاء الذين يكرههم هيثم بشدة يقبل ارتداء جلابية وعمامة ولو كانت المهمة الموكلة إليه مجرد حفظ النظام في المكان. يتطلب شرف حماية القانون والحضارة ارتداء قميص وبنطلون ونظارات سوداء، لا ثياب قديمة وبالية تفوح منها رائحة البصل.

يأكل الرجل من رغيف عيش يتساقط منه فتات الجبن الأبيض، وبلا كلمة واحدة يمد يده بالرغيف إلى هيثم. بينما يأكل الصبي، يخبره بأن اسمه الحاج حسين، وبأنه قائد الفَلوكة التي تتولى نقل أهل جزيرة دهب منذ شروق الشمس وحتى غروبها، بين الجزيرة والمدينة. لم يمارس من قبل أي وظيفة أخرى، على الرغم من أنه يملك في الجزيرة بقرتين تدران لبنًا يبيعه للناس، وحمارًا. هذه التفاصيل الزائدة عن الحاجة لم تلفت انتباه هيثم الذي بدأ أمله يتطلع إلى شيء آخر. ودون أدنى اعتبار لوظيفته الجليلة وسنه، قاطع هيثم استغراق الحاج حسين في سرده لحياته الشخصية قائلًا:

Telegram:@mbooks90

- أنا جعان.

- لو عاوز تاكل يا بني، تقدر تساعدني، أنا محتاج إلى مَن يساعدني.

الريح ساكنة اليوم، وهو لا يستطيع أن يُحرك المجاديف ويُدير الدَفّة في وقت واحد، في ساعة مبكرة مثل هذه، وفي يوم الجمعة، كان الرجل يبحث عن مساعدة ولم يجد أحدًا.

- هتشوف، الشغل سهل جدا، طفل عنده خمس سنين يقدر عليه، ولو حتى تفكيره بسيط.

ما الذي يجعل هيثم يرفض؟ ليترك القدر يتصرف هذه المرة، على الأقل سيستمتع بالإبحار في الماء، مركب في النيل، أليس هذا ما كان يسعى إليه؟

تتكون الدفة من عصا خشبية ثقيلة، للتحكم فيها يجب الاعتماد على الذراعين معًا. العمل ليس صعبًا ولا يتطلب أكثر من اتباع تعليمات الحاج. كما أنه لا يوجد ركاب اليوم، وأول مَن قرروا العبور هم أشخاص يرغبون فقط في التنزه. تبدو المجاديف الطويلة والثقيلة كالعارضات، وعندما تنغمس في الماء ثم تظهر من جديد تُصدر صوتًا يشبه صوت الشفاه لحظة التقبيل. على ارتفاع قريب من الفَلوكة تُحلق طيور مختلفة، كالعصافير البيضاء وأبو قردان والبط البري، في مشهد يوحي بأننا في ريف وادي النيل، إذا تجاهلنا النظر ناحية المعادي حيث ترتسم في الأفق ظلال لأبراج شاهقة مَبنية من الطوب ومَحمية بواجهات من الزجاج.

عند الظهيرة، يتعاون فلاحون يرتدون جلاليب سوداء على نقل عجل بعيون رطبة إلى الفَلوكة. يهتز المركب وتصرخ النساء صرخات حادة، ويصببن لعنات مُبهمة على الحاج حسين، يقلن إنه مُدخن حشيش وقاتل لنساء عائلته، لكن كل ذلك ينتهي إلى ضحكات رنانة. يستمتع هيثم بالمشهد، كأنه في السينما، قبل أن يستولي عليه الضجر من تشابه رحلات الذهاب والعودة، ويسأل نفسه: كيف يمكن للناس أن يقضوا حيواتهم في أعمال مملة إلى هذا الحد؟

يحين موعد الصلاة. يترك الحاج مركبه في عُهدة هيثم، بعد أن يُثبّته بالجسر العائم في المرسى. ثم يغادر لأداء فروضه. لم يعد هناك أحد لا على الضفة ولا حول المنازل.

يجد هيثم نفسه أخيراً بمفرده، ليس لديه ما يقوم به، ومرهق لأنه لم ينم في الليلة الفائتة، فيستسلم للعمل الوحيد المنطقي وهو النوم.

لن يُفسد نومه شيء بما في ذلك النُتف المتطايرة من خُطب الجمعة التي تلقيها الجوامع البعيدة. كان قد تمدد على حرف الفَلوكة عندما مرّت سلسلة من المراكب المُحملة بأحجار ثقيلة، وتولّد عن مرورها موجة هزّت القارب. يميل هيثم بجذعه كي يتفرج على الموجات الصغيرة وهي تتشكل في محاولة لمحاكاة البحر، ويمد يده فيمسّ الماء البارد.

في هذه اللحظة تقع عيناه على صورة تقترب منه، صورة غائمة تبدو كأنها مشهد من حلم، أو على نحو أدق، قطع منفصلة تكوّن في حركتها صورة وجه. كلما هدأت المياه يتشكل هذا الوجه على نحو أفضل وتعلن قسماته المميزة عن نفسها، يقترب منه أكثر فأكثر، كأنه سيخرج له من الماء. الآن يتعرف على ملامحه، البشرة القمحية، العينين السوداوين واللوزيتين إلى حد ما، والشفتين الدقيقتين. في افتتان يحدق هيثم طويلًا إلى انعكاسه الخاص الذي يتراقص على السطح، ويُكلّم نفسه بصوت مرتفع:

- هيثم! هيثم بومبة!

تلقائيًا يعود إليه اسم شهرته. هكذا كانوا ينادونه في السيدة زينب، بسبب حبه لإطلاق النار من البندقيات الخفيفة أثناء الاحتفال بالمولد الكبير، وأيضًا لنشاطه وحيويته.

يدرك الآن أنه لن يكون هناك هيثم آخر من بعده، وأنه ما زال هناك وقت قبل أن يغادر الحياة.

إن وجهه هذا، الذي يرتسم في أعمق أعماق المياه كأنه كشف لسرّ، هو نفسه هبة النداهة له، هبتها غير المتوقعة. ربما لم تشأ مناداته لأنه صغير جدًا، ونحيل جدًا، لأنها أشفقت عليه من هذا المصير المحكوم بالمعاناة والخوف. لم يعد لديه شك في أنه وسط هذه المدينة الشاسعة وبين المليون شخص الذين يعيشون حيوات غامضة، سوف يجد أحدًا يُحبه، يُشعِل من أجله شمعة، يهبه قطعة من النور.

تصطدم بهيكل المركب حزمة من زهور الخزامى، يلتقط منها واحدة بنفسجية هشّة. بعد أن يشمها، يضعها هيثم على شفتيه ثم يدفعها إلى نهر النيل.

برقة شديدة، تبتعد الزهرة، تتقدم في اتجاه الشمال، إلى أن تختفي. ستصاحب النهر، عندما يتدفق محصورًا بين الجزر التي تنتصب فيها العمارات. وتمر معه بين الشقوق المظلمة من الأسمنت والصلب، التي تمتد خلفها أحياء، وشوارع، وطرقات بلا عدد، تتقاطع أحيانًا وتتشعب أحيانًا أخرى. ثم تمضي بعيدًا، أبعد من انعكاس ضوء الشمس على سطح الماء الأزرق، حتى تصل إلى الرمال الكئيبة، الضبابية، ذات اللون الأصفر المميز للصحراء الملتهبة والفارغة.

Telegram:@mbooks90

٢٧٠٧٩٠٢٣٣١